29 - ـ فصل : لماذا تكثر الحسنات و السيئات ؟ .

كل شيء خلق ا تعالى في الدنيا فهو أنموذج في الآخرة و كل شيء يجري فيها أنموذج ما يجري في االآخرة فأما المخلوق منها فقال ابن عباس Bهما : [ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء] .

وهذا لأن ا تعالى شوق بنعيم إلى نعيم و خوف بعذاب من عذاب .

فأما ما يجري في الدنيا فكل ظالم معاقب في العاجل على ظلمه قبل الآجل و كذلك كل مذهب ذنبا وهو معنى قوله تعالى : { من يعمل سوءا يجز به } .

و ربما رأى العاصي سلامة بدنه و ماله فظن أن لا عقوبة و غفلة عما عوقبت به عقوبة .

و قد قال الحكماء : المعصية و الحسنة بعد الحسنه ثواب الحسنه .

و ربما كان العقاب العاجل معنويا كما قال بعض أحبار بني إسرائيل : [يا رب كم أعصيك و لا تعاقبني ؟] فقيل له : [كم أعاقبك وأنت لا تدري أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي ؟] .

فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد حتى قال وهب بن الورد و قد سئل : أيجد لذة الطاعة من يعصي ؟ فقال : و لا من هم .

فرب شخص أطلق بصره فحرمه ا اعتبار بصيرته أو لسانه فحرم صفاء قلبه أو آثر شبهة في مطعمه فأظلم سره وحرم قيام الليل وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك .

و هذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفس و على ضده يجد من يتقي ا تعالى من حسن الجزاء على التقوى عاجلا كما [في حديث أبي أمامة : عن النبي صلى ا عليه و سلم يقول ا تعالى : النظرة إلى المرأة سهم مسموم من سهام الشيطان من تركه ابتغاء مرضاتي آتيته إيمانا يجد حلاوته في قلبه] .

فهذه نبذة من هذا الجنس تنبه على مغفلها .

فأما المقابلة الصريحة في الظاهر فقل أن تحتبس و من ذلك قول النبي صلى ا عليه و سلم : [الصبحة تمنع الرزق وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه] .

و قد روى المفسرون : أن كل شخص من الأسباط جاء باثني عشر ولدا و جاء يوسف بأحد عشر بالهمة و مثل هذا إذا تأمله ذو بصيرة رأى الجزاء و فهم كما قال الفضيل : [إني لأعصي ا D فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي] .

و عن أبي العثمان النيسابوري : أنه انقطع شسع نعله في مضيه إلى الجمعة فتعوق لإصلاحه ساعة ثم قال : [ما انقطع إلا لأني ما اغتسلت غسل الجمعة] .

و من عجائب الجزاء في الدنيا أنه لما امتدت أيدي الظلم من إخوة يوسف { و شروه بثمن بخس } امتدت أكفهم بين يديه بالطلب يقولون : { و تصدق علينا } .

و لما صبر هو يوم الهمة ملك المرأة حلالا و لما بغت عليه بدعواها : { ما جزاء من أراد بأهلك سوء } أنطقها الحق بقولها { أنا راودته } .

ولو أن شخصا ترك معصية لأجل الله تعالى لرأى ثمرة ذلك وكذلك إذا فعل طاعة و في الحديث : [إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة] أي عاملوه لزيادة الأرباح العاجلة .

و لقد رأينا من سامح نفسه بما يمنع منه الشرع طلبا للراحة العاجلة انقلبت أحواله إلى التنغص العاجل و عكست عليه المقاصد .

حكى بعض المشايخ : أنه اشترى في زمن شبابه جارية قال : [فلما ملكتها تاقت نفسي إليها فما زلت أسأل الفقهاء لعل مخلوقا يرخص لي] .

فكلهم قال : [لا يجوز النظر إليها بشهوة و لا لمسها و لا جماعها إلا بعد حيضها] .

قال : فسألتها فأخبرتني أنها اشتريت و هي حائض] فقلت : [قرب الأمر] .

فسألت الفقهاء فقالوا : [لا يعتد بهذه الحيضة حتى تحيض في ملكه] .

قال : فقلت لنفسي و هي شديدة التوقان لقوة الشهوة و تمكن القدرة و قرب المصاقبة : [ما تقولين ؟] .

فقالت : [الإيمان بالصبر على الجمر شئت أم أبيت] .

فصبرت إلى أن حان ذلك فأثابني الله تعالى على ذلك الصبر بنيلي ما هو أعلى منها وأرفع